مجلة جامعة الملك سعود، م٢، العلوم التربوية (١)، ص ص ٢٤١-٢٥٩ (١٤١٠هـ/١٩٩٠م).

الابتعاث للخارج وقضايا الاتصال الحضاري

إبراهيم بن حمد القعيد

أستاذ مساعد، مركز اللغات الأوروبية والترجمة. كلية الآداب، جامعة الملك سعود، الرياض، المملكة العربية السعودية

ملخص البحث. يعتبر الابتعاث للدول الغربية رافدًا من أهم روافد الاتصال الحضاري بين الحضارة الإسلامية والحضارة الغربية وله نتائج وآثار اجتماعية ونفسية على الطلبة المبتعثين، وتُرى هذه النتائج والآثار في بعض التغيرات الفكرية والسلوكية التي يتعرضون لها في بلاد الغربة واستمرار هذه التغيرات بعد الرجوع إلى أرض الوطن.

والواقع أن دراسة الجانب الثقافي للابتعاث للخارج وآثاره الفكرية والسلوكية توضح أنه تجربة حضارية مميزة. وهذه التجربة الحضارية تجعل من الصعب النظر إلى الابتعاث من زاوية معينة كاعتباره رحلة للتحصيل العلمي أو التخصص الأكاديمي أو التدريب المهني فقط، بل لابد من النظر إليه بشمولية على اعتبار أنه قضية حضارية تتعلق بالاتصال الحضاري بين المبتعث كفرد من مجتمع له حضارة، ومجتمع الدراسة كممثل لحضارة مختلفة.

تهدف هذه الدراسة إلى إلقاء الضوء على الجانب الثقافي (الاجتماعي والنفسي) من الابتعاث للخارج، وأهم آثاره الفكرية والسلوكية على الطلبة المبتعثين. وقد تم تناول هذا الجانب في ضوء ما توافر لدينا من بحوث ودراسات في مجال الاتصال الحضاري بين الأفراد والشعوب، وفي ضوء ما توافر لدينا من بحوث ودراسات حول قضايا تكيف الطلبة المبتعثين مع حياة الغربة.

وقد وصلت الدراسة إلى مجموعة من النتائج أهمها أن المبتعث عند ابتعاثه يمر بأربع مراحل من التكيف، وهي *مرحلة الانبهار*، (عند الوصول إلى بلاد الغربة) والتي تمثل عادة بداية الاتصال الحضاري بين الطالب والحضارة الغربية، وتتميز بمظاهر الاستغراب والانطباعات السريعة التي يشوبها شيء من السعادة والإطراء للمحيط الثقافي الجديد. و*مرحلة الصدمة الثقافية* وما يصاحبها من قلق ناتج عن فقدان

المعايير الاجتماعية التي تعود عليها الطالب وما يرتبط بذلك من مشاعر الحيرة والخوف وعدم الاطمئنان في التعامل مع البيئة الثقافية الاجتماعية الجديدة. ومرحلة *التكيف الجزئي* والتي تعتبر بداية التعامل الفعلي مع البيئة الجديدة وفيها يتم التكيف التدريجي، ويختار فيها الطالب أسلوب التكيف الذي يرغب أن يعيش به في البيئة الجديدة، إما اندماجًا، أو رفضًا، أو تكيفًا راشدًا. وأخيرًا مرحلة *التكيف النهائي* والتي تتسم بالتميز في شخصية الطالب، وتكوين اتجاهات وميول جديدة، وظهور أبعاد جديدة في شخصيته، نتيجة لطبيعة أسلوب التكيف الذي ارتضاه في المرحلة الثالثة، ونتيجة لتعوده على الحياة الاجتماعية ومسلماتها الفكرية والسلوكية في حياة الغربة.

مقدمة

كان ولايزال الابتعاث إلى الدول الغربية رافدًا من أهم روافد الاتصال الحضاري بين الحضارة الإسلامية والحضارة الغربية، ففي كل عام يشد الآلاف من الطلاب والطالبات رحالهم لطلب العلم في بلاد الغرب حيث يمضون سنوات يكونون فيها جزءاً من المؤسسات التعليمية الغربية ينهلون من معين علومها ويخضعون لتصوراتها ونظرياتها وأنظمتها وتقاليدها الجامعية، وكذلك يكونون جزءاً من الحياة الاجتماعية الغربية يتعرضون لمسلماتها الثقافية وأنماط سلوكها وعاداتها وتقاليدها، يحتكون احتكاكًا مباشرًا ومستمرًا مع هذه الحياة فيتأثرون ويؤثرون.

ويعتبر التحصيل العلمي، أو التخصص الأكاديمي، أو التدريب المهني، بلا شك، هو الهدف الأساسي الذي يدفع للابتعاث للخارج، حيث يقاس مدى نجاح الطالب أو فشله بالنتائج العلمية أو الأكاديمية أو المهنية التي يحصل عليها في مؤسسات التعليم الغربية. وتبعًا لذلك تعتبر الدرجة العلمية أو الشهادة التي يحصل عليها الطالب، بعد زمن يطول أو يقصر حسب نشاطه ونوع دراسته، الحصيلة النهائية للرحلة العلمية في بلاد الغرب.

وعلى الرغم من أهمية الجانب التعليمي في الرحلة العلمية باعتباره الهدف الأول والحافز الرئيس عليها فإن ظاهرة الابتعاث للدول الغربية ظاهرة حضارية بطبيعتها ليس في الإمكان الفصل فيها بين الجانب التعليمي (الأكاديمي والمهني) وبين الجانب الثقافي (الاجتماعي والنفسي) وتأثيراته على فكر الطلبة المبتعثين وسلوكهم. والواقع أن الجانب

الثقافي في الابتعاث لم يعط ما يستحقه من الاهتمام ولم يدخل غالبًا في حساب المؤسسات المسؤولة عن الابتعاث، كما أن الكثير لا يدرك أبعاد هذا الجانب على الرغم من الإحساس ببعض مظاهره السلوكية والفكرية على المبتعثين بعد الرجوع من البعثة. إن جوهر هذا الجانب من الابتعاث للغرب يتمثل في الاتصال الحضاري بين الطالب كفرد من مجتمع له سماته الحضارية، وبين مجتمع الدراسة كمجتمع له سمات حضارية مختلفة، وما يعني ذلك من اختلاف في النظرة إلى الكون والإنسان والحياة، واختلاف في العادات والتقاليد واختلاف في أسس بناء العلاقات الاجتماعية واختلاف في البديهيات والمسلمات الثقافية.

لقد أثبتت الدراسات الاجتماعية والنفسية التي أجريت على الطلبة الأجانب الدارسين في بلاد الغرب، أهمية الجانب الثقافي (الاجتماعي والنفسي) للابتعاث للخارج، والتأثير الكبير لهذا الجانب على البيئة الفكرية والنفسية للطالب ليس أثناء دراسته في المجتمعات الغربية فقط، بل في استمرار هذا التأثير في حياته في مجتمعه بعد رجوعه إلى أرض الوطن [١].

أهداف الدراسة

تهتم هذه الدراسة — بصفة عامة — بإلقاء الضوء على الجانب الثقافي (الاجتماعي والنفسي) من الابتعاث للخارج، وتهدف بالتحديد إلى تحقيق الأهداف الرئيسة الآتية:

١ـ توضيح وكشف بعض المعالم الرئيسة لظاهرة الاتصال الحضاري

٢ـ توضيح العلاقة بين الاتصال الحضاري والأبتعاث للخارج

٣ـ توضيح أهمية الآثار الثقافية (الاجتماعية والنفسية) للابتعاث للخارج

أهمية الدراسة

تستقي هذه الدراسة أهميتها العلمية من مبررات كثيرة، أهمها الآتي:

١ـ إن ظاهرة الابتعاث للخارج للطلبة العرب والمسلمين تمثل رافدًا من روافد التقاء واحتكاك الحضارة الإسلامية بالحضارة الغربية، لذلك فهي ظاهرة مهمة تجدر دراستها، ومعرفة أبعادها، وآثارها الفكرية والسلوكية على الطلبة المبتعثين، ومن ثم محاولة الاهتمام بالابتعاث للخارج، وتوجيهه، وترشيده لصالح مجتمعاتنا العربية وامتنا الإسلامية.

٢- إن هناك ندرة كبيرة في الدراسات العلمية في مجال الابتعاث للخارج وبخاصة باللغة العربية، مما يساعد على جعل هذه الدراسة حافزًا على دراسات مشابهة.

٣- إن هذه الدراسة اعتمدت إلى حد كبير على الدراسات الأصلية التي عملت في هذا المجال باللغة الإنجليزية، وهي لذلك تعد إثراء للغة العربية بتقديمها دراسات جديدة في موضوعها تؤصل معرفتنا في مجالها.

٤- إن هذه الدراسة لم تعتمد على ترجمة الدراسات في موضوعها وتصنيفها وتحليلها فقط، بل أخذت بعض جوانبها وأبعادها من التجارب الشخصية للباحث، الذي كان مبتعثًا للخارج للدراسة في الولايات المتحدة الأمريكية لعدة سنوات من حياته، سنوات كان خلالها تحت ضغوط الاتصال الحضاري، ومشكلات الصدمة الثقافية، والتكيف مع بيئة ثقافية اجتماعية مختلفة.

مجال الدراسة وحدودها

في هذه الدراسة سنحدد أنفسنا بتقديم ما استطعنا الحصول عليه من الدراسات والبحوث، حول قضايا الاتصال الحضاري، وقضايا تكيف الطلبة المبتعثين، في إطار ما كتب منذ عام ١٩٥٠م، كما أننا سنحدد أنفسنا بالدراسات التي أجريت في الولايات المتحدة الأمريكية، واختيار الولايات المتحدة الأمريكية، وما أجري فيها من بحوث، لم يكن وليد صدفة، فالولايات المتحدة الأمريكية هي امتداد وتتويج للحضارة الغربية، وهي بذلك تشترك مع أوروبا الغربية في التراث الحضاري، ومن ثم فهي من ناحية ثقافية واجتماعية، لا تختلف كثيرًا عن المجتمعات الغربية الأخرى. من أجل هذا نفترض أن المؤثرات الثقافية والاجتماعية المصاحبة للرحلة العلمية للطالب الأجنبي، لا تختلف في بلاد غرب أوروبا عنها في الولايات المتحدة الأمريكية.

هذا من ناحية، ومن ناحية أخرى تتميز الولايات المتحدة الأمريكية بوفرة الدراسات التي أجريت على الطلبة الأجانب في الجامعات الأمريكية، وهذه الوفرة في الدراسات تبررها

أسباب كثيرة، منها أن الجامعات الأمريكية تقوم بإجراء الدراسات على الطلبة الأجانب، للتعرف على أحوالهم واتجاهاتهم وآرائهم في الخدمات التعليمية المقدمة، وذلك بهدف تطوير هذه البرامج. ومنها أن المجتمع الأمريكي يقوم عن طريق بعض مؤسساته بكثير من الدراسات التي تهدف إلى التعرف على الطلبة الأجانب، ومنها أن رحلة الطالب الأجنبي للولايات المتحدة الأمريكية تثير فضول كثير من علماء النفس، وعلماء الأجتماع المهتمين بقضايا التبادل الثقافي والتكيف الاجتماعي، ومظاهر الصدمة الثقافية.

وهناك سبب آخر أدى إلى اختيار الدراسات التي أجريت على الطلبة الأجانب في الولايات المتحدة الأمريكية واعتبارها عينة تمثل نموذجًا مثاليًا للرحلة العلمية إلى بلاد الغرب، وهذا السبب يتمثل في وجود أعداد كبيرة من الطلبة الأجانب من دول العالم المختلفة، وعلى رأسها الدول العربية والإسلامية، يتلقون تعليمهم في الجامعات والمؤسسات التعليمية الأمريكية.

طريقة جمع المعلومات وتقديمها

اعتمدت الدراسة أساسًا على ترجمة عينة من البحوث والدراسات الأصلية المكتوبة باللغة الإنجليزية، والتي أمكن الحصول عليها في زياراتي لبعض جامعات الولايات المتحدة الأمريكية، وما حصلت عليه من بحوث عن طريق مراكز المعلومات في مدينة الملك عبدالعزيز للعلوم والتقنية، ومركز الملك فيصل للبحوث والدراسات الإسلامية. وتتركز المجموعة الأولى من البحوث والدراسات حول قضايا الاتصال الحضاري بين الشعوب والأمم على اعتبار أن هذا سيكون مدخلاً لفهم المؤثرات الثقافية للابتعاث للخارج، كما تتركز المجموعة الأخرى من البحوث والدراسات حول قضايا تكيف الطلبة المبتعثين، على اعتبار أن هذا التكيف يعد من أهم مظاهر الاتصال الحضاري بينهم وبين الثقافة الغربية. وقد تم بعد ذلك تصنيف هذه الدراسات، وتحليلها، واكتشاف القواسم المشتركة بينها، ووضعها في إطار عام موحد، نأمل أن يقدم رؤية متناسقة لتقويم ظاهرة الابتعاث للخارج، وأبعادها المختلفة، على النواحي السلوكية والفكرية للطلبة المبتعثين.

وبناء على الرؤية التي رسمت لظاهرة الابتعاث للخارج، والآثار الحضارية المترتبة على ذلك، قدمتُ في نهاية الدراسة بعض التوصيات التي آمل أن تساعد على توجيهه وترشيده لصالح مجتمعاتنا العربية وأمتنا الإسلامية.

طبيعة الاتصال الحضاري

لتوضيح مفهوم الاتصال الحضاري، وما يعني من تأثير على الأفراد والأمم، علينا دراسة وتحليل ما يعرف بظاهرة التثاقف acculturation أو (التبادل الثقافي). وتعرف هذه العملية على أنها «التبادل الثقافي المشترك الذي يحدث عندما يتصل أفراد من ثقافتين، أو ثقافات متعددة ببعضها البعض» [٢، ص٣١]. كما تعرف على أنها «النتائج التي تحصل عندما تتوافر الفرصة للاتصال المستمر، والمباشر، بين مجموعات من الأشخاص ذوات ثقافات متعددة، وما يتبع ذلك من تغير ثقافي في إحدى هذه المجموعات أو في جميعها» [٢، ص٣١].

وقد خرج مصطلح التثاقف في الأصل من تقاليد علم الأجناس anthropology، ويقصد به — غالبًا — في الدراسات الحديثة أساليب واستراتيجيات التكيف التي يستعملها بعض الأفراد، والأقليات، للتعامل مع معطيات الحضارة الغربية. وبعبارة أوضح هي الجهود المبذولة لتحسين المستوى الاقتصادي والسياسي والاجتماعي للأفراد والأقليات في مجتمع تسيطر عليه القيم الغربية.

ودراسة التثاقف بوصفه ظاهرة علمية، بالرغم من نشوئها — كما أسلفنا — في مجال علم الأجناس، والتعامل معها كظاهرة تتعلق بمجموعة ثقافية فإنها في الدراسات الحديثة تشمل أيضًا دراسة الأشخاص، ومدى ما يتعرضون له من تأثيرات ثقافية، عند احتكاكهم بثقافة، أو ثقافات مغايرة. من أجل ذلك أصبحت المعالجات والدراسات الموجهة إلى ظاهرة التثاقف ذات مستويين، المستوى الأول يتعلق بالمجموعات الثقافية، والمستوى الثاني يتعلق بدراسة الأشخاص، وعند الحديث عن الاتصال، والاحتكاك، وأساليب التكيف، والنتائج التي تحصل ذلك، فإن ما يصدق على المجموعة الثقافية (أمة، جنس، وطن، مجتمع، مجموعة) يصدق في الوقت نفسه على الأشخاص [٣، ص٧].

ويرى الباحث جون بري John Berry أن ظاهرة التثاقف عند حدوثها تأخذ مسارًا ذا ثلاثة أطوار، الطور الأول هو طور الاتصال، وهو عندما تلتقي ثقافتان أو أكثر ببعضهما البعض عن طريق الاحتكاك المباشر بين الأفراد أو المجموعات، والطور الثاني هو طور الصراع، ويحدث بسبب الاحتكاك المباشر بين القيم، والرؤى المختلفة والمتنوعة، والتي تميز الثقافات الإنسانية بعضها عن بعض والتي تكون الشخصية الإنسانية — عادة — انعكاسًا لها. وكقاعدة عامة، في كل الظروف التي يحصل فيها الاتصال الثقافي يقود هذا الاتصال ـ في فترة ما — إلى نوع من الصراع، ولكن أبعاد الصراع تكون أعمق، وحدته أشد، كلما كانت الثقافتان أو الثقافات المتصلة مختلفة، أي كلما كانت بعيدة عن بعضها البعض من نواحٍ فكرية ونفسية، في نظرتها إلى الإنسان والكون والحياة. والطور الثالث والأخير هو التكيف، ويقصد به الطرق المختلفة التي اتبعت لتخفيف حدة الصراع، أو أدت إلى إنهائه تمامًا [٣، ص٨].

والواقع أن الأطوار الثلاثة لظاهرة التثاقف هي أطوار نسبية، تعتمد على الظروف الحضارية التي يتم فيها الاتصال بين الأفراد والجماعات، فأقل مستوى من التبادل الثقافي يحصل عندما يكون الاتصال عرضيًا، أو لفترة قصيرة وأقوى مستوى من هذا التبادل (وما ينتج عنه من صراع وتكيف) يحصل عندما يكون الاتصال مقصودًا ومخططًا له، مثل السيطرة على مجتمع ما بالغزو العسكري، أو تغيير سماته، ومقوماته الأساسية، عن طريق التعليم، أو التوجيه بشتى أنواعه، أو عن طريق استيطان أرضه فترة طويلة من الزمن.

وقد أوضح جون برى John Berry أربعة أنواع من عمليات التثاقف تمثل أساليب وطرق ردود الفعل عندما يحصل التبادل الثقافي، وهي الذوبان assimilation والاندماج in-tegration والرفض rejection والتفرد deculturation [٣، ص١١]. ولإلقاء الضوء على هذه الأنواع من التبادل الثقافي، سنستعين بتحليل الوضع الاجتماعي والثقافي للهنود الحمر، ونتيجة اتصالهم بثقافة المستوطنين الأمريكيين. فالدراسات تشير إلى أن ردود فعل الهنود الحمر تجاه الاتصال بالحضارة الغربية (التي جاء بها الأمريكيون) اتسمت بوجود هذه الأنواع الأربعة من التبادل الثقافي، كما أن الأطوار الثلاثة — التي تحدثنا عنها سالفًا — قد تمت

بطريقة واضحة وجلية، حيث أعقب الاتصال المباشر صراع شديد، وحروب استمرت عدة قرون، استطاعت بعدها ثقافة الرجل الأبيض أن تسيطر وتهيمن وتفرض نفسها على ثقافة الهنود الذين وجدوا أنفسهم مجبرين على التعامل مع المعطيات الجديدة، والتكيف مع الوضع المفروض. وبدأ الهنود — على مستوى الأفراد والجماعات — باختيار الأساليب المناسبة للتكيف مع الحضارة الغربية، فاتجه فريق إلى أسلوب الذوبان وهو الاستسلام للثقافة الغربية، والانسلاخ من الميزات الثقافية التي كانت تميزهم عن غيرهم، واكتساب أنماط الفكر والسلوك وفلسفة الحياة الاجتماعية، وأسلوب الحياة الغربي. واتجه فريق آخر إلى أسلوب الاندماج، وهو المحافظة على نوع من الهوية الثقافية مع التحرك تجاه قبول القيم، والتصورات، التي تقدمها الثقافة الغربية، ومحاولة توجيه الجهود إلى الانتماء إلى إطار اجتماعي أكبر، يتسم بالتعددية، ويميز المجتمع الأمريكي عن غيره من المجتمعات. واتجه الفريق الثالث إلى أسلوب الرفض في التكيف مع الثقافة والحياة الأمريكية، وهو أسلوب الانسحاب، والعزلة، الفكرية، والنفسية، بل العزلة الجسدية أيضًا في بعض الأحيان، ويوضح ذلك أوضاع كثير من الهنود الحمر في أمريكا، والذين يعيشون في مستوطنات خاصة بهم معزولين فيها عن الاحتكاك المباشر بالثقافة من حولهم، حيث يجدون في هذه المستوطنات الأمان النفسي والاجتماعي، ويمارسون عاداتهم وتقاليدهم وطقوسهم الدينية، ويحافظون على هويتهم الثقافية. كما اتجه الفريق الرابع إلى أسلوب التفرد في التكيف والتعامل مع الثقافة الأمريكية، ويقصد بهذا الأسلوب الانسلاخ من الثقافة الأصلية للهنود، وضياع الهوية المميزة لهم، وفي الوقت نفسه رفض الثقافة الغربية، وهذا يعني قطع العلاقات الثقافية (الاجتماعية والنفسية) مع كلتا الثقافتين، وبالتالي تطوير ثقافة ثالثة مختلفة.

وقد وفرت الدراسات النفسية والاجتماعية، عن الأفراد والأقليات في المجتمع الأمريكي، كثيرًا من المعلومات والحقائق العلمية، التي أسهمت في تعريفنا على ظاهرة التبادل الثقافي، ومن هذه الدراسات — على سبيل المثال — ما قامت به الباحثة سوزان كيف Suzan Keefe من جهود في اكتشاف أساليب التكيف، التي يستعملها الإسبان الأمريكيون في حياتهم مع الثقافة والمجتمع الأمريكي. وقد خرجت الباحثة بنتائج أهمها أن

عملية التبادل الثقافي بين المكسيكيين الأمريكيين (مجموعة من الأقلية الأسبانية الأمريكية ذات الأصل اللاتيني) وبين المجتمع الأمريكي أفرزت ثقافة جديدة ذات هوية ثقافية مميزة، ثقافة لا تشابه الثقافة السائدة في الولايات المتحدة الأمريكية، ولكنها ليست في الوقت نفسه مثل الثقافة المكسيكية التقليدية. أي أن محافظهتم على بعض التقاليد، والسمات الثقافية لثقافتهم الأصلية، وامتصاصهم لسمات ثقافية جديدة من مجتمع الولايات المتحدة، قد أعطتهم شيئًا من التميز والهوية المختلفة. وظهور هذه الهوية المميزة عملية اجتماعية معقدة أفرزتها عملية التبادل الثقافي ورسم أبعادها الجديدة تداخل عوامل مختلفة، تتعلق بالإحساس القومي للأقلية، والمحافظة على بعض السمات الثقافية، والاستعداد لقبول سمات ثقافية جديدة، مع الأخذ في الاعتبار — بطبيعة الحال — مكانة كل من الثقافتين في الميزان الحضاري والتقدم المادي [٤، ص٢٣].

ويتضح من نتائج دراسة سوزان كيف، أن التوجه في عملية التبادل الثقافي بين الأقلية المعنية والمجتمع الأمريكي، يميل لأسلوب الاندماج. وقد دلت دراسات أخرى على أن تكيف المهاجرين إلى أمريكا وأفراد الأقليات الأمريكية، يخضع — بصفة عامة — لنموذج واحد، وهو الاندماج، مع اختلافات في الدرجة، والسرعة من شخص إلى آخر [٣، ص١٣] واختلاف درجة الاندماج وسرعته قضية تتعلق بتشابك كثير من العوامل الداخلة في عملية التبادل الثقافي، مثل الفترة الزمنية التي قضتها أو ستقضيها المجموعة، (أو الفرد)، في المجتمع الأمريكي، والتمكن من اللغة الإنجليزية، والأسلوب العقلي، ونمط الشخصية، ومدى المحافظة على الهوية الثقافية، ونوع الاتجاهات نحو المجتمع الأمريكي، ومدى الشعور بالقلق الناتج عن التبادل الثقافي، وأخيراً عمر الفرد وجنسه (ذكر أو أنثى) [٣، ص١٤].

وتكاد الدراسات والأعمال النظرية التي اطلعتُ عليها، تجمع على تبرير اتجاه واحد في التبادل الثقافي، وهو أسلوب الاندماج في التعامل مع الحضارة الغربية، والاعتقاد بأن هذا هو الأسلوب الأسلم، والأمثل، لا للأقليات والمهاجرين والطلاب الذين يعيشون في أمريكا فقط بل للمجموعات البدائية — أيضًا — وما يعرف بالمجتمعات المتخلفة، التي

تحاول اللحاق بركب الحضارة. ويعتمد هذا الأسلوب على افتراض نظري مفاده أن الحضارة الغربية ومنجزاتها، في ميادين العلم، والفن، والأدب، والحياة الاجتماعية، وما نتج عن ذلك من مظاهر في الفكر والسلوك والأنماط الثقافية الأخرى، تمثل في مجملها أفضل إنجاز للعقل البشري ومن ثم تعكس التحضر، والتقدم، وتتربع على قمة الحضارة الإنسانية، وتبعًا لذلك فالحضارة الغربية هي المثال الذي يجب أن يحتذى، والمعيار الذي في الإمكان اتخاذه، للحكم على الثقافات والحضارات الإنسانية الأخرى.

الاتصال الحضاري والطلبة المبتعثين

بعد إلقاء الضوء على بعض دراسات التبادل الثقافي يجب ألا ننسى المحتوى الحضاري الذي يتم فيه هذا الاتصال والتبادل، فالحديث كان دائمًا عن تكيف الأقليات والمهاجرين مع الثقافة الأمريكية، أي تكيف مجموعة صغيرة ذات ثقافة، تعتبر أقل من ناحية إنجازاتها المادية والعلمية مع مجموعة كبيرة ذات ثقافة عالمية سائدة ومهيمنة ومتمكنة صناعيًا. ولا شك أن ميزان التبادل الثقافي يميل لصالح الثقافة الأمريكية والتي يكون الذوبان والاندماج في ضوئها ومُوْجَهًا لحسابها.

والسؤال الذي يطرح نفسه الآن ما هو موقع الفرد من معادلة التبادل الثقافي هذه سواء كان هذا الفرد واحدًا من أقلية تعيش في الثقافة الأمريكية أو مهاجرًا أو طالبًا أجنبيًا؟ وللإجابة عن هذا التساؤل نعيد للذاكرة ما أكده جون برى من أن الدراسات والمعالجات الموجهة إلى ظاهرة التبادل الثقافي، ذات مستويين، المستوى الأول يتعلق بالمجموعات الثقافية، والمستوى الثاني يتعلق بدراسة الأشخاص، وأن ما يصدق على المجموعة الثقافية (أمة، جنس، وطن، مجتمع، مجموعة) يصدق في الوقت نفسه على الأشخاص منفردين، عند اتصالهم بثقافات مختلفة [٣، ص١٦].

وقد أجريت العديد من الدراسات على المهاجرين، والطلبة الأجانب. وسنحاول هنا إيراد عينة من هذه الدراسات، ونخص بالذكر تلك التي أجريت على الطلبة الدارسين في أمريكا، وعمليات تكيفهم مع الحياة، والثقافة الأمريكية.

ومن هذه الدراسات التي عملت حول تكيف الطلبة الأجانب في المجتمع الأمريكي دراستان لكل من فرانكلن سكوت Franklin Scott [٥] ورتشارد موريس Richard Morris [٦، ص٢٤] وقد أكدتا على مرور الطلبة في تكيفهم بمراحل متشابهة. وبالرغم من تشابه هذه المراحل يختلف الزمن الذي يكفي للمرور بها من طالب إلى طالب، حسب نوع الشخصية، والظروف التي يعيش فيها.

وتتوافق نتائج دراسة الباحثة كورا دو بوا Cora Du Bois مع نتائج الدراستين السابقتين وتوضح بالتفصيل أن الطلبة يمرون بأربع مراحل مميزة من التكيف وهي حسب التصنيف الآتي:

١ـ مرحلة المتفرج، وتستغرق هذه المرحلة من أسبوعين إلى شهر، وهي معروفة بأنها مرحلة اكتشاف المحيط الذي يعيش فيه الطالب، والتعرف على المظاهر السطحية لجوانب الحياة الأمريكية.

٢ـ مرحلة التكيف مع الحياة، وتبدأ هذه المرحلة عند أغلب الطلبة عندما تبدأ الدراسة، وتستمر لعدة شهور، وهذه المرحلة تكون — عادة — مليئة بالمشكلات مثل مشكلة اللغة، ومشكلة التعرف على النظام التعليمي الأمريكي، ونوعية الاختبارات، والمتطلبات الدراسية، ومشكلات فهم، وبناء العلاقات مع الطلبة والأساتذة الأمريكان... إلخ.

٣ـ مرحلة التعود وقبول الحياة، وتبدأ هذه المرحلة عند أغلب الطلبة بعد انقضاء الأشهر الستة الأولى من الحياة في أمريكا، ويعتبر الطالب قد ألف الحياة الأجتماعية، وتعود عليها، وأصبحت لديه حصيلة مناسبة من المعرفة الاجتماعية والأكاديمية.

٤ـ مرحلة ما قبل الرجوع إلى الوطن، وتتميز هذه المرحلة عند أغلب الطلبة بتشكيل اتجاهات إيجابية عن الحياة الأمريكية وبميول واضحة نحو الاندماج فيها [٧].

وتعتبر الدراسة التالية من أهم الدراسات في الميدان، قام بها الباحثان سول وديفدسن Sewell and Devidson ، وقد استغرقت أكثر من سنتين، تتبع فيها الباحثان أربعين طالبًا من إسكندنافيا، قدموا للدراسة في جامعة وسكانسون الأمريكية. وكان الهدف من الدراسة معرفة التغيرات في السلوك، والاتجاهات التي تحدث لهؤلاء الطلبة، من جراء حياتهم، وتعاملهم مع المجتمع الأمريكي، وقد تم جمع الكثير من المعلومات التي تتعلق بخلفية الطلبة الاجتماعية، وتجاربهم، ومشاعرهم نحو الأمريكان، وطرق تعاملهم مع المحيط الاجتماعي من حولهم، عن طريق المقابلات الشخصية وتعبئة استبانات نموذجية، كل عدة أسابيع، وعن طريق التقارير الدورية التي كتبها الأساتذة الأمريكان المشرفون على دراستهم. وبعد تجميع المعلومات، وتحليلها، وتصنيفها، استنتج الباحثان مرور الطلبة بثلاث مراحل من التكيف، كما يتضح من التفصيل الآتي:

١ـ تأثر الطلبة كثيرًا في الأسابيع الأولى من قدومهم بالطريقة السريعة التي يبنى بها الأمريكان صداقاتهم مع الآخرين، كما أعجبوا بحسن الضيافة التي قوبلوا بها، مما أدى بهم — بصفة عامة — إلى تكوين مشاعر حسنة تجاه الأمريكان.

٢ـ بدأ الطلبة، بعد عدة أسابيع من حياتهم في أمريكا، في تقليص علاقاتهم الاجتماعية بالأمريكان، وبدأت المشاعر الحارة المتحمسة التي تشكلت في الأسابيع الأولى بالاختفاء، وبدأوا يتحدثون عن سخطهم، واستيائهم من الطريقة التي يبني بها الأمريكان علاقاتهم الاجتماعية، كما يتحدثون عن سطحية هذه العلاقات، ويعبرون عن شكوكهم في مدى مصداقية وإخلاص مثل هذه الصداقات التي تبنى على الطريقة الأمريكية. وقد أدت هذه المشاعر إلى نوع من خيبة الأمل، ونوع من الانسحاب من الحياة الأمريكية. ويكاد يكون هناك إجماع بين الطلبة على الإحساس بالمرور بهذه المرحلة النفسية، والشعور بأثرها القوي في الشخصية، على عكس المرحلة الأولى التي قد يكون الإحساس بها أخف.

٣ـ بعد عدة أشهر طرأت بعض التغيرات على نظرة كثير من الطلبة للحياة الأمريكية، حيث وصل هؤلاء إلى قناعات خاصة، بتميز العلاقات الاجتماعية الأمريكية،

وبوجود كثير من الجوانب الإيجابية فيها. وبمرور الزمن بدأ هؤلاء الطلبة في بناء صلات قوية، وصداقات طويلة الأمد، مع الطلبة الأمريكان، ومع الأساتذة في الجامعة، وحتى مع مواطنين من خارج البيئة الجامعية، وبعضهم تعرف على عائلات أمريكية، وقام بزيارتها باستمرار، كما وصلت الرغبة في الاندماج عند البعض، إلى الانضمام إلى جمعيات طلابية أمريكية، في الحرم الجامعي، والوصول في بعض الأحيان إلى مراكز قيادية في هذه الجمعيات. وتتميز هذه المرحلة التي يمر بها الكثير من الطلبة بتكوين مشاعر إيجابية تجاه الحياة الأمريكية.

وإذا كانت ردود الفعل في المرحلتين الأوليين متشابهة إلى حد كبير، فإن ذلك لا ينطبق على المرحلة الثالثة، حيث وجد الباحثان ردود فعل متفاوتة تختلف من طالب إلى آخر. ومرد هذا الخلاف دخول عوامل كثيرة تتعلق بشخصية الطالب نفسه، وعمره، ومدى مرونته في التعامل مع البيئة الجديدة، وتقويمه للثقافة التي يحملها. . . إلى غير ذلك من العوامل.

وقد اكتشف الباحثان نتيجة لتحليل مشاعر الطلبة، ودراسة أنماط شخصياتهم، وتعاملهم مع البيئة الاجتماعية الأمريكية في المرحلة الثالثة، أن هناك أربعة أنواع من الطلاب:

النوع الأول

هو المشارك المتحمس، وهذا النوع من الطلبة يحاول الانخراط كلية في الحياة الأمريكية، وهو مدفوع بروح الاندماج، لإعجابه الشديد بهذه الحياة، ولاقتناعه بأفضليتها، وما تمثله من ثقافة وقيم، فتراه لذلك قوي الصلات مع الأمريكيين، واسع الاطلاع على ما يهمهم من قضايا، وكذلك على معرفة جيدة بعاداتهم، وتقاليدهم، ومسلماتهم الثقافية، وأساليب حياتهم. وهو بعد ذلك يؤمن باتخاذ النموذج الأمريكي نموذجًا يحتذى في الفكر والسلوك.

النوع الثاني

المراقب عن بعد، وهذا النوع من الطلبة يحاول — دائمًا — قصر علاقاته على الحد الأدنى في تعامله مع المجتمع الأمريكي، ولا يدخل نفسه إلا فيما كان ضروريًا من

العلاقات. كما يتجنب كثيراً من المواقف التي تجعله في احتكاك مباشر بالممارسات الاجتماعية الأمريكية. وهذا النوع من الطلبة، في موقفه الفكري والنفسي، على نقيض المشارك المتحمس.

النـــوع الثالـــث

المروج للقيم التي يحملها، وهذا النوع من الطلبة مدفوع في علاقته مع الأمريكيين برغبته الشديدة في تعريفهم بالقيم التي يحملها، والثقافة التي ينتمي إليها، لذلك فهو يحاول إقامة صلات دائمة مع من يتعرف عليهم، ويستغل المناسبات والفرص في شرح وجهة نظره التي يخالف بها (فكريًا وسلوكيًا) وجهة النظر الأمريكية في كثير من القضايا.

النـــوع الرابـــع

المستوطن، وهذا النوع من الطلبة يحاول أن يقطع كل صلة له بالثقافة التي ينتمي إليها، ويحاول أن يبتعد عن أبناء جلدته، أو موطنه الأصلي، رغبة في المزيد من الاندماج في الحياة الأمريكية. وهو يفعل ذلك رغبة منه في إقناع الآخرين بأنه لم يعد غريبًا على الثقافة الأمريكية التي ينوي الاستقرار والاستيطان فيها، وأنه قد اكتسب أو في طريقه لاكتساب السمات الثقافية المميزة التي تجعله مقبولاً كمواطن أمريكي [٨].

وفي ضوء هذه الدراسة التتبعية التي استغرقت — كما أسلفنا — سنتين، تم خلالهما رصد التحولات في سلوك واتجاهات الطلبة الإسكندانافيين، الدارسين في جامعة أمريكية، لاحظ البـاحثـان أن ردود فعـل الطالب عند حياته في الثقافة الأمريكية، والتحولات في سلوكه، واتجاهاته، كانت متأثرة بالطريقة التي يرى ويقوِّم بها نفسه، وبالطريقة التي يرى ويقوِّم بها ثقافته وبلده، وكانت متأثرة كذلك بفكرة الأمريكيين عن الطالب شخصيًا، وعن الثقافة والبلاد التي ينتمي إليها.

وفي دراسة أخرى حول قضايا تكيف الطلبة الأجانب مع الثقافة الأمريكية، قام البـاحث محمود تعالى شانديز M.T. Shandes بتتبع ٢٢٨ طالبًا أجنبيًا يدرسون في جامعة

أوكـلاهوما. وقد أثبتت الدراسة أن الطلبة الأجانب يبدأون حياتهم في الولايات المتحدة الأمريكية بمشاعر إيجابية، وعلاقات قوية مع الأمريكيين، سرعات ما تتلاشى هذه المشاعر وتتقلص هذه العـلاقـات، ولكن قبـل الـرجوع إلى الوطن ترجع كثير من تلك المشاعر والعلاقات القوية عند بعض الطلبة [٩].

وبالرغم من أن دراسة شانديز لا تقدم تحليلاً شاملاً وعميقًا عن طبيعة التبادل الثقافي بين الـطالب الأجنبي والمجتمـع الأمـريكي فإنها ألمحت إلى نفس نتائج الدراسات التي سبقتهـا، وتم ذلـك على عينـة كبـيرة من الطلبة الأجانب من مناطق مختلفة، في آسيا، وأفريقيا، وأمريكا اللاتينية، ومن ثقافات تعتبر أقل تقدمًا ماديًا وحضاريًا.

الاتصـال الحضـاري والرحلـة العلمـية

مما سبق ذكره من دراسات يتبين أن الرحلة العلمية للطالب الأجنبي من وطنه إلى المجتمعات الغربية للدراسة، من أكثر العوامل تأثيرًا على بناء شخصيته. فالقضية في هذه الرحلة لا تقف عند اكتساب المعارف والمهارات العلمية، والخبرات الدراسية والمهنية، التي يُبنَى عليها عادة مستقبل الطالب، بل تتعدى هذا إلى مؤثرات نفسية واجتماعية، ناشئة عن الاتصال الحضاري بين ثقافتين. فالاتصال الحضاري بين ثقافتين — كما ذكرنا — يؤدي إلى نوع من الصراع، وهذا بدوره يقود إلى التكيف. ونستطيع القول — بصفة عامة — إن اتصال الطالب بالثقافة الأمريكية، وحياته فيها، يجعلانه تحت ضغوط صراع نفسي تزداد حدته، أو تخف، بمقدار نسبي، حسب البعد أو القرب الفكري والنفسي بين ثقافة الطالب والثقـافة الأمريكية (أي النظرة إلى الكون والإنسان والحياة). فكلما كانت ثقافة الطالب متأثرة بالمفاهيم الغربية، أو قريبة منها، فكريًا ونفسيًا، ومتوجهة في مسار الاندماج معها، كانت عملية التكيف النفسي والاجتماعي أيسر وأسرع، وإن بعدت ثقافة الطالب فكريًا ونفسيًا، واتسمت بعدم الرغبة في الاندماج، فإن عملية التكيف تشوبها الصعوبة وتستغرق وقتًا أطول وقد لا تتم [١٠، ص١٣٥].

على أن المسألة من الصعب أن تؤخذ بهذا التعميم في جميع الظروف لأن هناك عوامل متداخلة تتحكم في عمليات التكيف، بالإضافة إلى اختلاف الثقافتين. من هذه العوامل،

على سبيل المثال، شخصية الطالب، وعمره، ونظرته للثقافة التي يحملها، ونظرته للثقافة الأمريكية، ونظرة الأمريكيين له ولثقافته. . . إلخ.

مراحـــل التكـــيف الاجتماعـــي والنـفسي

ونحاول هنا أن نربط بين نتائج الدراسات العلمية التي سبقت الإشارة إليها، سواء أكانت هذه الدراسات قد درست تكيف الأقليات في المجتمع الأمريكي، أو درست تكيف المهاجرين، أو درست حياة الطلبة الأجانب وأساليب تكيفهم مع الحياة الأمريكية. ونأمل أن يقود هذا الربط المنظم إلى الخروج برؤية واضحة عن المراحل التي يمر بها الطلبة في تكيفهم، ويلقي الضـوء على طبيعـة هذه المـراحل، والفترات التي تستغرقها، والمؤثرات الفكرية والسلوكية التي تتركها على شخصية الطالب. وسنحاول أن نشير بقدر الإمكان إلى حياة الطالب المسلم، والمؤثرات المحتملة لتجربة الغربة.

ويتلخص التصور التي نطرحه بمرور الطالب بأربع مراحل متتابعة من التكيف هي:

١ـ مرحلة الانبهار
٢ـ مرحلة الصدمة الثقافية
٣ـ مرحلة التكيف الجزئي
٤ـ مرحلة التكيف النهائي

١ـ مرحلـــة الانبهـــار

وهذه المرحلة هي بداية الاتصال الحضاري المكثف، بين الطالب الأجنبي والثقافة الغربية، وتتميز عادة بمظاهر الاستغراب والانطباعات السريعة لدى بعض الطلبة يشوبها شيء من السعادة والإطراء لهذه الثقافة الجديدة. وأهم مميزات هذه المرحلة أن انطباعات الطالب وعملياته الاستكشافية تتسم بالسطحية، ولا تتعدى المظاهر الخارجية، وتتردد على لسان الطالب في هذه المرحلة عبارات المديح لكثير من أخلاقيات الثقافة الغربية (لما قد يراه من حسن المعـاملة والأدب الاجتـماعي) ولـلإنجازات المادية لهذه الثقافة (لما قد يراه من إنجازات حضارية وتوافر للخدمات).

وقد أوضح كلارك Klark بعد دراسته لهذه المرحلة أن مظاهر مرحلة الانبهار تكون أكثر وضوحًا عند أولئك الطلبة الذين يأتون إلى الثقافة الغربية من مجتمعات أقل تقدمًا ماديًا [١١، ص٣٧٧].

وتأخذ هذه المرحلة فترة قصيرة نسبيًا إذا ما قورنت بمراحل التكيف الأخرى حيث تتراوح، كما أفادت دراسة سول وديفدسن Swell and Davidson ، بين عدة أيام ومجموعة أسابيع. ولكنها على أية حال كما استنتج فرانكلين سكوت Franlin Scott ، لا تستمر أكثر من شهر.

مرحلة الصدمة الثقافية

وهذه المرحلة شديدة التداخل مع نهاية المرحلة الأولى، لكنها تتضح — عادة — عندما يكتشف الطالب الفروق الثقافية الشاسعة بينه وبين البيئة الثقافية الجديدة. وقد أشارت دراسة سول وديفدسن السالفة الذكر إلى هذه المرحلة، وفصلت الحديث عن بعض أبعادها، فقد وُجد أنه على الرغم من عدم البعد الثقافي بين الإسكندنافيين والأمريكان، فإن الطلبة الإسكندنافيين بعد مرور عدة أسابيع من قدومهم إلى الولايات المتحدة الأمريكية للدراسة، بدأوا يقلصون علاقاتهم الاجتماعية بالأمريكان، ويفقدون ذلك الحماس والتقويم السطحي للمظاهر الاجتماعية في الحياة الأمريكية، كما أنهم بدأوا يعبرون عن استيائهم، وعدم اطمئنانهم لكثير من الانطباعات التي شكلوها في بداية قدومهم.

وتكاد الدراسات حول هذه المرحلة تتفق على طبيعة الظروف النفسية والاجتماعية التي ترتبط بها، وليست هناك — مع الأسف — دراسات على الطلبة الذين جاءوا من بلاد عربية وإسلامية لمعرفة أبعاد هذه المرحلة عليهم، ولكن عند الأخذ في الاعتبار طبيعة الطالب المسلم، والبيئة التي قدم منها، والبيئة الغربية التي قدم إليها، نجد أن هذه المرحلة من أصعب مراحله في المؤسسات التعليمية الغربية. وتشترك عوامل كثيرة في إيجاد هذه الصعوبة. ومن أهم هذه العوامل الخلفية الثقافية للطالب، وهي تختلف في مفاهيمها اختلافًا جذريًا عن الثقافة الغربية. (يدخل في مفهوم الثقافة المعتقدات، الأخلاق،

الاتجاهات، الميول، القيم، طريقة السلوك، أنواع الأكل وطريقة المعيشة، وطريقة بناء العلاقات الاجتماعية وغير ذلك).

وقد عبر بيتر أدلر Peter Adler عن جوهر الصدمة الثقافية بقوله: إنها نوع من القلق الناتج عن فقدان المعايير الاجتماعية التي تعود عليها الفرد [١٢].

ومن العوامل التي تساعد على زيادة صعوبة هذه المرحلة عامل اللغة، فاللغة وسيلة الاتصال التي ينقل بها الطالب مشاعره ويعبر بها عن نفسه، وهي في مجتمعات كالمجتمع الأمريكي والأوربي مهمة لحياة الأجنبي، لأنه مجبر على التحدث بلغة القوم، وبما أن المقدرة على تحدث اللغة الإنجليزية عند كثير من الطلبة الذين يأتون من البلاد العربية والإسلامية هي محدودة غالبًا، فإن أحد مؤشرات صعوبة هذه المرحلة ينشأ من عدم قدرة الطالب على التعبير عن نفسه.

وبذلك نستطيع القول بأن اختلاف الثقافة واللغة هما العاملان الرئيسان في رسم أبعاد الصدمة الثقافية، وتشكيل ردود الفعل عند الطالب تجاه هذه الصدمة. وعلى كل حال تعتبر هذه المرحلة من حياة الطالب في بلاد الغرب مرحلة غير مستقرة، وينتابه فيها بعض الحيرة والخوف وعدم الاطمئنان.

ويصاحب الصدمة الثقافية — غالبًا — تكوين كثير من الاتجاهات والانطباعات عن البيئة الغربية، تختلف عن تلك التي كونت في البداية (في المرحلة الأولى). فيصاب الطالب بكثير من عمليات الإحباط، لفقدان كثير من توقعاته التي بناها قبل قدومه، ولإدراكه لسطحية الانطباعات التي تركتها أيامه الأولى في هذه البيئة الجديدة، وفي بعض الأحوال النادرة يصاحب هذه المرحلة من التكيف أعراض مرضية، تتخذ شكل آلام في الرأس والمعدة، كما أشار إلى ذلك دوجلاس براون Douglas Brown [١٣، ص١٥٧]. أو بعض المشكلات النفسية، التي تتميز بالعديد من أنواع السلوك الشاذ، والشعور بالهامشية، كما أثبتت ذلك دراسات لزابوزنك وزملائه Szapocznik [١٤].

ويلاحظ أن الطالب في هذه المرحلة يبحث عن المساعدة عند أبناء وطنه، الموجودين في منطقة دراسته، وقد يختار العزلة، وربما ترددت على لسانه عبارات الاستياء، بل إن حالته قد تزداد سوءًا لعدم استطاعته التكيف مع هذه البيئة، مما قد يؤدي به إلى التفكير جديًا في الرجوع إلى أرض الوطن، وقد ينساق إلى ذلك فعلاً.

وتشير دراسة قام بها قسم الشئون الاجتماعية في الملحقية الثقافية السعودية في الولايات المتحدة الأمريكية، إلى أن هناك ٨٠ طالبًا مبتعثًا فضلوا قطع دراستهم، والعودة إلى المملكة في الفترة من مايو ١٩٧٩م إلى يونيو ١٩٨٠م، وأن ١٨ طالبًا منهم (أي ٢٢,٥٪ من مجموع الحالات) عادوا إلى الوطن لأسباب نفسية، واضطرابات عقلية [١٥، ص٢٢].

وليس في الإمكان تحديد الفترة الزمنية التي تستغرقها هذه المرحلة بدقة ولكنها بصفة تقريبية تتراوح بين عدة أسابيع وعدة أشهر، وهي عند أغلب الطلبة لا تزيد على ستة أشهر [١٣، ص١٥٨].

٣- مرحلة التكيف الجزئي

في المرحلة الثانية (الصدمة الثقافية) أشرنا إلى أن الطالب يشعر بمدى الفروق الفكرية والسلوكية، بين ثقافته والثقافة الغربية، وتترك عنده هذه المعرفة انطباعات تختلف باختلاف شخصيته، لكن شعور الطالب بأنه أصبح جزءًا من هذه البيئة الثقافية الاجتماعية المختلفة، يفرض عليه كثيراً من عمليات التكيف الاجتماعي والنفسي، لكي يتمكن من العيش بسهولة في هذا المجتمع. كما يفرض عليه كثيراً من عمليات التكيف الأكاديمي، مع نظام التعليم الذي قدم إليه، من أجل التحصيل العلمي، وبذلك تعتبر هذه المرحلة هي بداية التعامل الفعلي مع هذه البيئة الجديدة، وفيها يتم التكيف التدريجي شيئاً فشيئاً. وتبدأ بعض المشكلات التي تعرض لها الطالب في مرحلة الصدمة الثقافية في الاختفاء، كما أن الأعراض الخاصة بالمرحلة السابقة تبدأ في الاضمحلال. ويبدأ الطالب في اكتساب بعض المهارات الجديدة، التي ستلعب دورًا كبيراً في تطور شخصيته، وبناء مواقف جديدة تجاه المجتمع الغربي، تعتمد على فهم وإدراك أكثر لمسلماته الثقافية.

وهناك علاقة قوية بين هذه المرحلة من حياة الطالب وبين تطور إتقانه للغة الأجنبية. فقد بين كل من الباحثين دوجلاس براون Douglas Brown ووليام اكتون William Acton — بعد تحليل الدراسات حول الموضوع — أن مشكلات مرحلة الصدمة الثقافية تفرض على الطالب ضغوطًا طبيعية كثيرة، تجعله يحاول التفاهم مع الآخرين، والاتصال بهم، والتعبير عن نفسه، وتكوين علاقات اجتماعية معهم. لذلك فإنك هذه المرحلة هي المرحلة التي يحدث فيها كثير من اكتساب اللغة الأجنبية، والتعرف على السمات الثقافية للمجتمع الغربي [١٣، ص١٥٩].

وقد دلت الدراسات التي أشرنا إليها سالفًا [٦، ص١٧] على أن مرحلة التكيف الجزئي مرتبطة ارتباطًا وثيقًا بمدى صلة الطالب واهتمامه وتقويمه ورأيه في الثقافة التي يحملها. وكذلك مرتبطة بنوع شخصيته وعمره والظروف الاجتماعية التي يعيش فيها.

وفي الإمكان الحديث هنا عن ثلاثة أساليب للتكيف في هذه المرحلة تميز الأنماط الفكرية والسلوكية للطلبة في تعاملهم وحياتهم في الثقافة الغربية، وهذه الأساليب هي: الاندماج والتكيف الراشد، والرفض.

فإذا كان الطالب يشعر بأفضلية الثقافة الغربية على ثقافته، على سبيل المثال، ويشعر بعدم الثقة في نفسه، وفي الاتجاهات والقيم التي اكتسبها في مجتمعه، أو كان الطالب صغير السن وفرضت عليه الدراسة في منطقة لا يوجد بها من يشاركه الإيمان بالقيم التي يحملها، فإن الطالب يتخذ — في الغالب — استراتيجية الاندماج في التكيف، حتى تتسنى له الحياة بدون أن يبدو غريبًا، أو شاذًا، في هذه البيئة الجديدة. وأسلوب الاندماج يحتم على من يسلكه اتخاذ النموذج الغربي طريقًا يحتذى، فيبدأ بتشكيل كثير من قيمه واتجاهاته وميوله، حسب ما يمليه هذا النموذج، ويرى في سلوكه التقليد لما يعمله الغربيون من تصرفات.

أما إذا كان الطالب يشعر بالاعتزاز بانتمائه الحضاري، فإن أسلوب تكيفه مع البيئة الجديدة، يأخذ طريقًا مغايرًا للاندماج، فهو يحاول في تكيفه أن يفهم طريقة الحياة

الجديدة، ويبني علاقات اجتماعية لا تؤثر على قيمه، وتحتفظ باستقلال شخصيته، كما يحاول — إذا توافرت الفرصة — التعريف بالقيم التي يؤمن بها، والدفاع عنها بطريقة مقبولة سليمة، تتمشى مع فهم صحيح للثقافة التي يعيش فيها. والملاحظ أن العديد من الطلبة المسلمين يفضلون هذا الأسلوب عند تكيفهم مع المجتمع الغربي بل ويزدادون تمسكًا بالإسلام، وهذه ردود فعل طبيعية للبعد النفسي والاجتماعي بينهم وبين الثقافة الغربية. فقد زادت هذه المعرفة الثقافية والعلاقة المباشرة من مستوى إيمانهم وتمسكهم بأخلاقهم. وهذا ليس غريبًا في الدراسات الاجتماعية والنفسية، فقد دلت البحوث على أن من يتصل حضاريًا بثقافات أخرى، يؤدي به ذلك إلى الوقوف من ثقافته وقفات تقويمية. حيث يقارن بين السمات التي تتصف بها ثقافته، والسمات التي تتصف بها الثقافات الأخرى. ويعرف هذا الأسلوب في التكيف — الاحتفاظ بالتميز مع التعامل مع البيئة الجديدة ـ بأسلوب التكيف الراشد.

والأسلوب الثالث للتكيف مع البيئة الجديدة هو أسلوب الرفض ويقصد به الرفض التام لهذه الثقافة الجديدة وعدم الاستعداد للتعامل معها. وتكثر حالات الرفض الفكري والثقافي عند أفراد الأقليات التي تعيش في مجتمع أغلبيته تختلف ثقافيًا ودينيًا عن هذه الأقليات، ومن أمثلة ذلك في وقتنا الحاضر ما يحصل مع كثير من الهنود الحمر في المجتمع الأمريكي، الذين يختارون السكن في أماكن بعيدة عن الرجل الأبيض يمارسون طقوسهم الدينية، وحياتهم الاجتماعية، بمعزل عن الثقافة الأمريكية، وبعض الحركات ذات الميول الانفصالية لبعض السود في الولايات المتحدة مثل حركة تحرير السود التي تطالب بدولة مستقلة للسود في جنوب الولايات المتحدة الأمريكية. وأسلوب الرفض الكلي في التكيف نادرة الحدوث مع الطلبة الأجانب، ذلك أن الأهداف العلمية لقدومهم إلى الغرب تفرض عليهم — ولو بطريقة نسبية تختلف من طالب إلى آخر — التعامل مع البيئة الثقافية الجديدة، وتكوين الصلات الاجتماعية، وفهم كثير من المسلمات الثقافية للغرب. ولإيضاح بعض جوانب أسلوب استراتيجية الرفض في التكيف، تصور أجنبيًا من بلاد الغرب قدم إلى إحدى دول الخليج العربي للعمل، ومنذ قدومه كان اتصاله بالمجتمع المسلم في ذلك البلد محدودًا جدًا فهو يعمل في مكتب فيه أجانب آخرون، ويسكن بمنطقة معزولة مخصصة

للأجانب، وقد يتسوق من بقالة خاصة بأبناء وطنه، ولا يتحدث العربية، ولا تتوافر لديه الحوافز للتعرف على ثقافة وقيم هذا المجتمع الذي يعيش فيه. فمثل هذه الحالة الفرضية يسميها علماء النفس أسلوب الرفض في التكيف مع ثقافة المجتمع المضيف.

إن مرحلة التكيف الجزئي — بأساليبها الثلاثة — هي نتيجة للصدمة الثقافية وهي بداية للمرحلة الأخيرة من حياة الطالب في المجتمع الغربي، ومن الصعب تحديد فترة زمنية لهذه المرحلة، ولكن أغلب الطلبة يمرون بها قبل نهاية السنة الأولى من قدومهم [١٣، ص١٦١].

٤ـ مرحلة التكيف النهائي

وفي هذه المرحلة يكون الطالب قد طور مهارات للتعامل مع البيئة الجديدة، بعض هذه المهارات يتعلق بالتعامل مع النظام التعليمي وأنظمته ومواده ووسائله، والبعض الآخر من هذه المهارات يتعلق بتطور معرفته لجوانب كثيرة من الثقافة الغربية. ويكون الطالب أيضًا قد طور كثيرًا من العلاقات الاجتماعية مع أفراد المجتمع الغربي الذي يعيش فيه حسب أسلوب التكيف الذي اختاره في المرحلة السابقة.

وعلى كل حال، ومهما يكون أسلوب التكيف، فإن هذه المرحلة من حياة الطالب في المجتمع الغربي تخلق أبعادًا جديدة في شخصيته، كما أشارت إلى ذلك دراسات كل من رتشارد تافت R. Taft ، وسوزان كيف S. Keefe ، وزابوزنك ورفقاه Szapocznik et al. . وهذه الأبعاد تتمثل في أنه لم يعد ذلك الإنسان الذي قدم من بلاده، لاكتسابه مهارات ومعارف جديدة في علاقته مع البيئة الثقافية الغربية، لكنه لا يشترك عل أية حال من الأحوال في جميع السمات الثقافية المميزة للفرد الغربي.

ومفهوم الأبعاد الشخصية الجديدة (تسمى في بعض الدراسات بالإنسان الجديد) ليست خاصة بالطالب الأجنبي، بل إنها تنطبق على أي إنسان ينتقل من بيئة ثقافية اجتماعية إلى بيئة أخرى، ويتعرض لمراحل التكيف المذكورة.

والواقع أن مدى التغيير الذي تفرضه هذه الأبعاد الجديدة على سلوك الإنسان محكوم بطبيعة العلاقة بين البيئة الجديدة والإنسان، فرجل الأعمال الأمريكي الذي قدم من بلاده لإحدى الدول الأفريقية لا يقارن من ناحية تأثره بالبيئة الثقافية الاجتماعية الجديدة بطالب من إحدى تلك الدول قدم للولايات المتحدة للدراسة. فعمر الإنسان وجنسه (ذكر أو أنثى)، وطبيعة مهمته، ومدى تكوينه النفسي، ونظرته للبيئة الثقافية الاجتماعية التي قدم إليها، والفترة التي ستُقضى في هذه البيئة، ومدى تقويمه والتزامه بجوانب الثقافة التي اكتسبها، كل هذه العوامل بالإضافة إلى عوامل أخرى يعصب تحديدها، لها دور كبير في مدى التغيير الذي سيحصل للإنسان إذا انتقل من مجتمعه إلى مجتمع آخر.

ومما تجدر الإشارة إليه أن بعض الدراسات التي بحثت علاقة هذه المرحلة من التكيف بمستوى إتقان اللغة الأجنبية تشير إلى أن اكتساب اللغة عند الطالب الأجنبي بطيء في هذه المرحلة، فلم تعد هناك ضغوط كبيرة يفرضها الطالب على نفسه للتعلم، ولاكتساب اللغة مثل ما حصل في المرحلة الثالثة، ومن ثم إذا تعدى الطالب المرحلة الثالثة بدون أن يتقن التحدث باللغة الإنجليزية إتقانًا جيدًا، فإن الاحتمال كبير بأنه لن يتقدم كثيرًا بعد ذلك [١٦، ص١٤٠] والسبب أن الطالب في هذه المرحلة قد طور مهارات شخصية في علاقاته مع البيئة الثقافية الاجتماعية الغربية، فقد يؤثر العزلة نوعًا ما، أو يختار التركيز على العمل الأكاديمي ، مع تجنب كثير من المواقف الاجتماعية، التي تفرض عليه كثرة الحديث، المهم في الأمر أنه طور أسلوب حياة يعيش به في هذا المجتمع.

بيّنا فيما سبق المراحل الأربع، التي يمر بها الطالب المبتعث في البيئة الثقافية الاجتماعية الجديدة، التي قدم إليها للدراسة. وهذه المراحل هي مرحلة الانبهار، وتتسم بتشكيل انطباعات سطحية عن البيئة الجديدة، ومرحلة الصدمة الثقافية التي يشعر بها الطالب نتيجة لإدراكه الفروق بين ثقافته والثقافة الجديدة، ثم مرحلة التكيف الجزئي حيث تبدأ تجارب الطالب للتعامل مع البيئة الجديدة، ويحل الطالب في هذه المرحلة بعض مشكلاته وتبقى مشكلات أخرى، كما يختار فيها أسلوب التكيف الذي يتعامل به مع الحياة الاجتماعية لحل هذه المشكلات، إما بالاندماج أو التكيف الراشد أو الرفض. وأخيرًا مرحلة

التكيف النهائي حيث يبدأ الطالب في الاستقرار النفسي في حياته في مجتمع الغربة. وتتسم هذه المرحلة بالتميز في شخصية الطالب وتكوين اتجاهات وميول جديدة، كما تعرف هذه المرحلة بظهور أبعاد جديدة في شخصيته نتيجة لطبيعة أسلوب التكيف الذي اتخذه للتعامل مع البيئة الثقافية الاجتماعية الجديدة.

وهذه المراحل الأربع في التكيف تكون دائمًا متتالية، لكن مدى إدراك الطالب لها، والوقت الذي يأخذه في الانتقال من مرحلة إلى أخرى هو مسألة نسبية، فبينما يتمكن أحد الطلبة من تخطي هذه المراحل بسرعة، (من عدة أسابيع إلى عدة أشهر) مع إحساس خفيف ببعض مظاهر الصدمة الثقافية، قد تأخذ هذه المراحل وقتًا أطول يمتد لأكثر من سنة عند البعض الآخر، وتكون المعاناة قوية ومؤثرة. وعلى كل حال تعتبر الفترة الزمنية التي تتراوح بين ثمانية أشهر وسنة في المتوسط ، فترة كافية للوصول إلى المرحلة الأخيرة من التكيف.

على ألا يفهم مما أشرنا إليه في المراحل الأربع — خصوصًا في المرحلة الثالثة — أننا نستطيع التنبؤ بسلوك الطالب في جميع الظروف، فالإنسان مخلوق إلهي معقد، لم تستطع الدراسات العلمية في مجال التكيف النفسي والاجتماعي، تفسير كثير من سلوكه. ففي المرحلة الثالثة (مرحلة التكيف الجزئي) عند اختيار أسلوب التكيف (الاندماج، التكيف الراشد، الرفض) لا يعني ذلك أن مثل هذا الأسلوب يستمر مع الطالب في جميع الظروف، بل قد يجد نفسه مندمجًا في فترة من الفترات، ورافضًا لهذه الثقافة أو لبعض جوانبها في فترة أخرى، وقد يختار أن يتكيف بتوازن، وقد تختلط عليه الأمور في بعض المواقف فلا يعرف ماذا يفعل. المهم في الأمر أن هذه المرحلة (التكيف الجزئي) هي مرحلة غير مستقرة ومعقدة للغاية، وعلى الرغم من أن المرحلة الرابعة هي مرحلة مستقرة في الغالب، إلا أنه ينطبق عليها ما ينطبق على المرحلة الثالثة من التكيف، ولم يكن الهدف من تفصيلنا لجميع مراحل التكيف بطريقة فيها كثير من التصنيف والتتابع، إلا لرسم الصورة الإجمالية العامة لعمليات التكيف النفسي والاجتماعي التي تحدث للطلبة في فترة الابتعاث إلى الخارج.

الخاتمـــة والتوصيـــات

ألقينـا الضـوء في هذه الدراسة على الجانب الثقافي لظاهرة الابتعاث إلى الخارج، والآثار السلوكية والفكرية المترتبة على ذلك، وكانت الدراسة لهذه الظاهرة في إطار أشمل وأعم، اشتمل على معالجة بعض قضايا الاتصال الحضاري بين الشعوب والأمم. وكان المـبرر الرئيس لذلك هو أن ظاهرة الابتعاث للخارج وآثارها السلوكية والفكرية ليس في الإمكـان النـظر إليهـا على أنها رحلة للتحصيل العلمي، أو التخصصي الأكاديمي، أو التـدريب المهني فقط، بل لابـد من النـظر إليهـا على اعتبار أنها قضية حضارية تتعلق بالاتصال الحضاري بين المبتعث كفرد، من مجتمع له حضارة، ومجتمع الدراسة كممثل لحضارة مختلفة.

وقد اتضح لدينا بالفعل أن الدراسات التي أجريت على الطلبة المبتعثين، والنتائج التي حصلنا عليها، ليس في الإمكان فهمها ومعرفة مغازيها بدون أن توضع في إطار الاتصال الحضاري، وما عرف لدينا من نظرياته وقوانينه، وبناء على ذلك حاولنا رسم الإطار النظري للجانب الثقافي من الابتعاث للخارج، عن طريق التصور الذي قدمناه لمراحل التكيف التي يمر بها المبتعث عند دراسته في الخارج. وهي مراحل تكون في الغالب متتابعة، وتعتمد على الفترة الزمنية التي يقضيها الطالب، وتبدأ بمرحلة الانبهار والتي تمثل عادة بداية الأتصال الحضاري بين الطالب والحضارة الغربية، وتتميز عادة بمظاهر الاستغراب والانطباعات السريعة التي يشوبها شيء من السعادة والإطراء للمحيط الثقافي الجديد.

وتأتي بعدها مرحلة الصدمة الثقافية وهي نوع من القلق الناتج عن فقدان المعايير الاجتـماعية التي تعود عليها الطالب وما يرتبط بذلك من مشاعر الحيرة، والخوف، وعدم الاطمئنان في التعامل مع البيئة الثقافية الاجتماعية الجديدة.

والمـرحلة الثالثة مرحلة التكيف الجزئي والتي تعتبر بداية التعامل الفعلي مع البيئة الجديدة، وفيها يتم التكيف التدريجي وتبدأ بعض المشكلات التي تعرض لها الطالب في المرحلة السابقة بالاختفاء، ويتزامن ذلك مع اكتساب بعض المهارات التي تلعب دورًا كبيرًا

في تطوير شخصية الطالب وبناء مواقف فكرية وسلوكية مميزة تجاه المجتمع الغربي، تعتمد على فهم وإدراك لمسلماته الثقافية، والمواقف الفكرية والسلوكية التي نقصد، يعتمد تشكيلها — بدرجة كبيرة — على مدى صلة الطالب واهتمامه وتقويمه ورأيه في القيم، التي نشأ عليها، والثقافة التي يحملها، وكذلك تعتمد على نوع شخصية الطالب وعمره والظروف الاجتماعية التي يعيش فيها، وهي مواقف تعبر عن الخيارات الشخصية التي يتخذها الطالب في تعامله مع الحياة والثقافة الغربية، فهو إما أن يندمج ويتخذ النموذج الغربي سبيلاً يتغير في ضوئه الكثير من قيمه وتوجهاته وميوله، ويصبح مقلدًا للغربيين في الفكر والسلوك، وإما أن يرفض هذا النموذج ويضع الحواجز النفسية بينه وبين التعامل مع البيئة الثقافية الاجتماعية من حوله، ومن ثم يحرم نفسه من فهم المسلمات الثقافية الغربية، ويقلل فرص الاستفادة علميًا وإنسانيًا من تجربة الابتعاث، أو يتخذ أسلوب التكيف الراشد سبيلاً للتعامل مع الثقافة الغربية، وذلك بالاحتفاظ بالتميز والاستقلالية والهوية الإسلامية، مع المرونة في التعامل، والتعايش، ومحاولة الاستفادة الممكنة إنسانيًا وعلميا من تجربة الإبتعاث.

والمرحلة الرابعة من مراحل التكيف التي يمر بها الطالب هي مرحلة التكيف النهائي وهي مرحلة مستقرة نسبيًا مقارنة بالمراحل الثلاث السابقة وتتسم هذه المرحلة بالتميز في شخصية الطالب، وتكوين اتجاهات وميول جديدة، وظهور أبعاد جديدة في شخصيته، نتيجة لطبيعة أسلوب التكيف الذي ارتضاه في المرحلة السابقة، ونتيجة لتعوده على الحياة الاجتماعية ومسلماتها. الثقافية في حياة الغرب.

ونستطيع باختصار القول إن دراسة ظاهرة الابتعاث للخارج، بمحتواها الثقافي، ومؤثراتها السلوكية والفكرية، على الطلبة المبتعثين، تؤكد اشتمالها على جانبين مهمين في حياة الطالب المبتعث: جانب إيجابي وآخر سلبي. يرى الجانب الإيجابي في أثر الدراسة في بلاد الغرب على إثراء خبرات المبتعث من ناحية ثقافية، وانفتاحه، وتوسيع اطلاعه وتعريفه على ثقافات الشعوب الأخرى، وبالأخص تعريفه على المظاهر الفكرية والسلوكية للثقافة الغربية، وإتاحة الفرصة له للتعامل تعاملاً مباشرًا مع هذه الثقافة، مما يجعله شاهدًا عليها،

وقادرًا على التعامل معها، وفهمها، ومن ثم تنمي لديه الاستعداد ليكون أقدر من غيره على استيعاب الفروق الحضارية، واستثمارها لصالح الحضارة التي ينتمي إليها.

أما الجانب السلبي للابتعاث للخارج فيتضح في الآثار التي قد تنتج عن مراحل التكيف، التي يمر بها المبتعث في حياته في بلاد الغرب، فمرحلة الانبهار قد تترك آثارا عميقة في فكر المبتعث وسلوكه، بسبب مشاعر الانبهار بالحضارة الغربية، وما يقود إليه من إعجاب، ومن ثم استعداد للاندماج، والاقتداء بما تقدمه من أفكار وقيم وتوجهات وأنماط سلوك. ومرحلة الصدمة الثقافية قد تؤدي إلى فقدان الطالب اتزانه، وثقته بنفسه، وبالقيم التي يحملها، وتدعم في نفسيته الشعور بالهامشية في بلاد الغرب ومن ثم تجعله تحت ضغوط الدفاع عن الذات، ومحاولة تحسين صورته لمن يتعامل معهم، بحيث يجد نفسه بعد فترة من الزمن قد فرضت عليه كثير من التوجهات الفكرية والسلوكية التي تلاقي الرضا والاستحسان من المجتمع الغربي، وتجعل الطالب مقبولاً لديه. ويجد الطالب نفسه مع طول الفترة الزمنية التي يقضيها في بلاد الغرب قد تعود على هذه التوجهات الفكرية والسلوكية، وأصبحت جزءاً من شخصيته، كما أوضحت ذلك الدراسات التي قدمناها في المرحلة الرابعة من التكيف.

وعلى الرغم من أن الجانب السلبي للابتعاث للخارج، ليس في الإمكان افتراضه عند أغلب المبتعثين، إلا أن نتائجه الحضارية تعتبر — بلا شك — نتائج خطيرة، فابتعاث للخارج من هذا القبيل يدعم الانتشار، والهيمنة الثقافية الغربية، ويربط التقدم الحضاري الإنساني بالنموذج الغربي. وهو بالنسبة لمجتمعاتنا العربية وأمتنا الإسلامية ابتعاد عن الأصول، والتصورات العقائدية الإسلامية، وفقدان للهوية الحضارية التي تميزت بها هذه الأمة على مر العصور، وهو أيضًا ارتباط في فلك الحضارة الغربية وما يعني ذلك من تبعية واتكالية حضارية.

وإذا كان الابتعاث للخارج — كما نعتقد — رافدًا من أهم روافد الاتصال الحضاري بين الحضارة الإسلامية والحضارة الغربية في وقتنا الحاضر، فإن علينا مسؤولية

تاريخية نحو الاهتمام بهذا الرافد، وترشيد مساره، ووضعه في إطاره الصحيح، لتحقيق المصالح التي دعت إليه، والمبررات التي أوجدته، وفي الإمكان تقديم بعض التوصيات العامة التي تدعم هذا التوجه ونجملها في الآتي:

١ـ يجب أن تتحمل المؤسسات والأجهزة الحكومية المسؤولة عن الابتعاث في الدول الإسلامية، مسؤولية كبيرة، في دراسة الابتعاث للخارج وآثاره الفكرية والسلوكية، والنظر إليه على اعتبار أنه اتصال حضاري بين الحضارة الإسلامية والحضارة الغربية، وليس مجرد رحلة لطلب العلم، ومن ثم وضع العامل الحضاري في الاعتبار، عند وضع خطط الابتعاث، واختيار التخصصات واختيار المبتعثين. وعند ابتعاث الطالب للخارج يجب الاهتمام اهتمامًا مستمرًا بمتابعته، وتوفير الحلول لمشكلاته في بلاد الغرب، ومن جوانب هذا الاهتمام اختيار الجامعة المناسبة والمشهورة بمستواها العلمي الرفيع، وتشجيع الطالب على الدراسة في الجامعات التي تضم عددًا من الطلبة العرب المسلمين بحيث يرتبط اغترابه الحضاري مع وجود من يشترك معه في القيم، وبحيث لا يواجه ضغوط الحضارة الغربية معزولاً بمفرده. ومن جوانب هذا الاهتمام أيضًا تدعيم انتماء المبتعث لدينه وأمته، وذلك عن طريق تشجيع الأنشطة التي تخدم هذا الغرض في بلاد الغرب من محاضرات وندوات ومخيمات ومؤتمرات... إلخ.

٢ـ يجب على الجامعات والمؤسسات التعليمية والثقافية العليا في الدول الإسلامية أن تسهم إسهامًا فعالاً في ترشيد الابتعاث خارج البلاد الإسلامية وجعله في أضيق الحدود، بل والعمل تدريجيًا على إلغاء مبرراته. ولا شك أن هناك أساليب كثيرة لتحقيق هذه الأهداف، منها على سبيل المثال، توفير التخصصات اللازمة، ودعم البحث العلمي، وتوثيق العلاقات الأكاديمية والعلمية، وتنشيطها بين جامعات الدول الإسلامية، وتسهيل الابتعاث والفرص التعليمية بين الجامعات المعنية.

٣ـ وطالما أن الابتعاث للخارج لايزال يجد بعض المبررات فإن على الجامعات على وجه الخصوص مسؤولية عمل دورات وبرامج توجيهية للمبتعثين للخارج يتم فيها تعريف

المبتعث على الأنظمة والتقاليد الجامعية، والثقافة الغربية، وأنماط السلوك التي قد يواجهها، ن طريق هذه البرامج تحصين الطلبة فكريًا، وجعل البديل الحضاري الإسلامي واضحًا أمام الجميع، وقد خطت جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية في الرياض خطوات مباركة في هذا السبيل، ونظمت برنامجًا توجيهيًا منذ عدة سنوات ينضم إليه كل مبتعث في المملكة العربية السعودية، ويعتبر برنامجًا رائدًا في مجاله.

٤- يوصي الطالب المبتعث، على اعتبار أنه المسؤول أولاً وأخيرًا عن أسلوب التكيف الذي يختاره لنفسه، ويعيش به في بلاد الغرب، أن يحاول ما استطاع فهم الأبعاد النفسية والثقافية للابتعاث للخارج، ويتعرف على مدى أهمية مثل هذه الأبعاد في صياغة أنماط فكرية وسلوكية في شخصيته، وأثر ذلك عليه شخصيًا، وعلى الأمة التي ينتمي إليها. وفي ضوء هذه الرؤية، عليه أن يتعامل مع البيئة الثقافية الاجتماعية الجديدة بطريقة تضمن له الاحتفاظ بتميزه الفكري والسلوكي الإسلامي، وفي الوقت نفسه تمكنه من معرفه أصول الثقافة الغربية بأفكارها ومسلماتها واتجاهاتها، وهذا ما أشرنا إليه في دراستنا بالتكيف الراشد والذي يعتبر الموقف الفكري والسلوكي الوسط في المعادلة الحضارية بين الاندماج والرفض.

٥- يوصى المبتعث بألا يخلد — بفعل العادة والألفة — إلى الاستسلام للأفكار والمسلمات والاتجاهات الغربية في الفكر والسلوك، بل يكون دائم التقويم لها، وتطوير الحس المقارن بينها وبين الإسلام، بحيث لا تسيطر عليه مظاهر الانبهار والإعجاب ومن ثم الاقتداء بها.

٦- يوصى المبتعث ببذل الجهود في السنة الأولى من الابتعاث في تعلم اللغة بسبب ما تفرضه مرحلتا الصدمة الثقافية، والتكيف الجزئي، من ضغوط للتعليم اللغوي، يكون الطالب فيها عادة مهيأ نفسيًا لاكتساب المهارات اللغوية، وخاصة مهارة الحديث، وذلك أنه بانتهاء مرحلة التكيف الجزئي تبدأ الضغوط بالزوال، ومن ثم تبدأ حوافز التعلم اللغوي بفقدان قوتها وتأثيرها، وهذا بالطبع لا يعني أن يتخلى المبتعث عن التعلم اللغوي بعد السنة الأولى، بل يجب استثمار كل سنوات الابتعاث في التعلم اللغوي، وتدعيمه لإتقان اللغة

الأجنبية قدر المستطاع، ولكن أهمية السنة الأولى يجب ألا تغيب عن البال، لما لها من تأثير قوي في تهيئة الظروف النفسية للتعلم اللغوي. فمستقبل الطالب من الناحية الأكاديمية وفهمه للثقافة الغربية، بل صحته النفسية أيضًا، تعتمد اعتمادًا كبيرًا — كما أوضحنا في دراستنا — على ما يبذله المبتعث من جهود في تعلم اللغة في السنة الأولى من ابتعاثه للخارج.

٧ـ توصي المؤسسات والمراكز الإسلامية في الغرب بتحمل مسؤوليتها الكبيرة تجاه الطلبة المبتعثين، خاصة في السنة الأولى من الابتعاث، التي غالبًا ما يمر بها المبتعث بمراحل تكيفه في البيئة الثقافية الاجتماعية الجديدة، فالطالب في هذه السنة، وخاصة في مرحلة الصدمة الثقافية، في حاجة للمساعدة في فهم المظاهر الفكرية والسلوكية للثقافة الغربية، ومؤثرات الاختلاف بينها وبين الإسلام، وهو أيضًا في حاجة للمساعدة الشخصية، والتشجيع والمواساة، وتبديد مشاعر الغربة، وتهيئة الظروف له لتدعيم انتمائه للعقيدة، والحضارة التي يحملها. ويجب أن يترجم هذا الاهتمام من المؤسسات المذكورة إلى برامج توجيهية وتعليمية واجتماعية وترفيهية تقدم للرجال والنساء والأطفال.

٨ـ توصي المؤسسات والمراكز الإسلامية في الغرب، بإقامة العلاقات الجيدة مع الجامعات ومعاهد تعليم اللغة، والمؤسسات العلمية الأخرى، التي يفد إليها الطلبة المسلمون واستثمار مثل هذه العلاقات في مساعدتهم وتخفيف الضغوط الاجتماعية، والثقافية والأكاديمية عنهم، والتعبير عن آمالهم وقضاياهم في بلاد الغربة.

المراجـــع

[١] القعيد، إبراهيم بن حمد. «مشكلات التكيف للطلاب الأجانب في المؤسسات التعليمية الغربية». مجلة جامعة الملك سعود، م٢، العلوم التربوية (١) (١٤١٠هـ/ ١٩٩٠م)، ص ص

[٢] Spindler, Louise, S. ed. *Culture Change and Modernization*. New York: Holt, Rineheart and Winston, 1977.

[٣] Berry, John. "Acculturation as Varieties of Adaptation." In *Acculturation: Theory, Models and Some New Findings*, ed. Amado Padilla. Boulder, Colorado: Westview Press, 1980, 17-22.

Keefe, Suzan. "Acculturation and the Extended Family." In *Acculturation: Theory, Models and Some New Findings,* ed. Amado Padilla. Boulder, Colorado: Westview Press, 1980. [٤]

Scott, Franklin. *The American Experience of Swedish Students.* Minneapolis: University of Minnesota Press, 1956. [٥]

Morris, Richard. *The Two Way Mirror.* Minneapolis: University of Minnesota Press, 1960. [٦]

Du Bois, Cora. *Foreign Students and Higher Education in the United States.* Washington, D.C.: American Council on Education, 1956. [٧]

Sewell, W. and Oluf Davidson. *Scandinavian Students in an American University.* Minneapolis: University of Minnesota Press, 1961. [٨]

Shandes, Mahmoud, T. "Factors Influencing Foreign Students' Adjustment and Attitudes in the Community of Oklahoma State University." Unpublished Doctoral Dissertation, Oklahoma, Oklahoma State University, 1980. [٩]

Schumann, John. "Social Distance as a Factor in Second Language Aquisition." *Language Learning,* 26, (1976), 135-47. [١٠]

Klark, J. "Clash of Consciousness." *Language Learning,* 26 (1976), 377-83. [١١]

Adler, Peter, S. "Culture Shock and the Cross Cultural Learning Experience." In *Readings in Intercultural Education* 2. Pittsburgh: Intercultural Communication Network, 1972. [١٢]

Brown, Douglas. "The Optimal Distance Model of Second Language Acquisition." *TOSEL (Teachers of English to Speakers of Other Lanauages) Quarterly Magazine,* 14 (1980), 157-64. [١٣]

Szapoczink, et al. "Biculturalism and Adjustment." In *Acculturation: Theory, Models, and Some New Findings,* ed. Amado Padilla. Boulder, Colorado: Westview Press, 1980. [١٤]

[١٥] «استطلاع عن الطلبة السعوديين في الولايات المتحدة الأمريكية.» مجلة المبتعث (مجلة تصدرها الملحقية السعودية في الولايات المتحدة الأمريكية)، هيوستن، تكساس (محرم ١٤٠٤هـ)، ص ص٢٢-٢٥.

Schumann, John. "Social Distance as a Factor in Second Lanaugage Aquisition." *Langauage Learning,* 26 (1976), pp. 135-148. [١٦]

Krisanachinda, Richitluk Attitudes and Adjustment of Foreign Students in the United States. The University of Kansas, Lawrence, International Students Studies, 1970. [١٧]

Studying Abroad and Cross-Cultural Contact

Ibrahim H. Al-Quayid
Assistant Professor, Center for European Languages and Translation, College of Arts, King Saud University, Riyadh, Kingdom of Saudi Arabia

Abstract. Studying abroad for Arab and Muslim students constitutes one of many important channels of contact between the Islamic and the Western civilizations. This channel has some social and psychological impact on students and can result in attitudinal and behavioral changes. This study aims at investigating the cultural side of studying abroad and the resulted attitudinal and behavioral changes among students.

The study concludes that students studying abroad go through four different stages of adjustment. The first is the excitment stage which marks the beginning of the cultural contact between the student and the western culture. The second is the culture shock stage which results from the loss of commonly perceived and understood social signs and norms and the realization of cultural differences between the student's culture and the western one. The third is the partial adjustment stage which indicates the beginning of the actual dealing with and understanding of the culture of the new social environment. In this stage gradual adjustment takes place and the student chooses one of three strategies of adjustment; assimilation, rejection or wise adaptation. And the last stage of adjustment is known as the final stage. In this stage the student is considered to be fully adjusted with some changes in attitudes and behavior resulting from this interesting experience in cross-cultural contact.